التقديم والتأخير
في المتشابه القرآني
(بصائر ذوي التمييز .. أنموذجا)

Progress and Regress
in the Quranic Similitude
Basar Thawi Altameez
(Imsight of the percipient) as a Perennial

م.د. وفاء عبّاس فيّاض

جامعة كربلاء/ كليّة العلوم الإسلامية

قسم اللغة العربية

Lecturer. Dr. Wafa `Abass Feyadh
University of Karbala
College of Islamic Sciences
Department of Arabic

... ملخص البحث ...

يعد موضوع التقديم والتأخير في النص القرآني واحدا من الموضوعات المهمة التي لها علاقة بالإعجاز القرآني من جهة وبالنحو والدلالة من جهة أخرى، ويشتمل البحث على مادة غزيرة في المتشابهات القرآنية التي عناها الفيروزآبادي في كتابه البصائر وكانت ذات صبغة لغوية – نحوية خالصة تعتمد في الأساس على وجود التشابه اللفظي بين الآية والآية الأخرى في موضع آخر من القرآن، ولا شأن لها بالمتشابه في الأحكام والعقائد.

فالمادة التي يقدمها معنية بالكشف عن وجوه التعبير القرآني وبيان ميزاته من جهات التقديم والتأخير؛ مما هو يدخل في صميم نظم النص المقدس، وترابط ألفاظه بعين نحوية – دلالية خالصة، لا بعين النحوي الذي يبحث عن القاعدة أو اللغوي الذي يلتقط الألفاظ الغريبة .

إنّ هذا المنحى في تناول المتشابهات في القرآن يقترب كثيرا من البحث من فكرة النظم وتطبيقاتـها وهي الفكرة التي جاء بها الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز)، ونستطيع القول بأن ماسنقدمه من أمثلة تعد تطبيقات نحوية دلالية ولاسيما فيما يتعلق بذكر المتشابه من الآيات القرآنية سواء كان ذلك في التقديم النحوي أم التقديم اللفظي. وسيتضح معايير الفيروز آبادي في الكشف عن إبراز هذا التفاعل القائم بين النحو والدلالة كان أبرزها السياق بنوعيه: السياق اللغوي وسياق الحال.

... Abstract ...

The locus of progress and regress in the Quranic context floats into being as one of the salient loci appertaining to the Quranic miracles at one end of the prism, and the linguistics and semantics at the other end of the prism.

The study takes grasp of barren soils of the Quranic similitude Al-Feirozabadi tackles in his book; The Insight, tinged with linguistic and syntactic colours depending mainly upon the similar utterance between an Iyat and another one in a different position in the Quran, regardless of the similitude in regulations and doctrines.

The locus he shows is to investigate the Quranic expression and state the merits of both the progress and regress that run into the heart of the system of the sacred context and the coherence of its utterances in the light of syntax and sheer semantics.

Such a curve that manipulates the similitude in the Quran resembles the idea of systems and their application, Al-Sheikh Abidalqahar Al-Jarjani coins such an idea in his book; the Precursors of Miracle.

We could determine that what we are to tackle is considered as syntactic and semantic applications, in particular, what appertains to the similitude of the Quranic Iyats whether they are in the syntactic progress or in the utterance regress.

For Al-Feirozabadi standards are to come to the fore in showing such an outstanding interaction between linguistics and semantics in terms of two isles: the linguistic isle and the manner isle.

... تقديم ...

تناول الفيروزآبادي في القسم الأول من كتابه (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز) سور القرآن سورة سورة مرتبة كما هي في المصحف وكان تناولها من جهات متعددة؛ منها فقرة عنونها بقوله: المتشابهات من آياتها.

ولقد اشتملت هذه الفقرة على مادة غزيرة تبين أن المتشابهات التي عناها الفيروزآبادي ذات صبغة لغوية – نحوية خالصة تعتمد في الأساس على وجود التشابه اللفظي بين الآية والآية الأخرى في موضع آخر من القرآن، ولا شأن لها بالمتشابه في الأحكام والعقائد. فالمادة التي يقدمها في البصائر معنية بالكشف عن وجوه التعبير القرآني وبيان ميزاته من جهات التقديم والتأخير والحذف والذكر ونحو ذلك؛ مما هو يدخل في صميم نظم النص المقدس، وترابط ألفاظه بعين نحوية – دلالية خالصة، لا بعين النحوي الذي يبحث عن القاعدة أو اللغوي الذي يلتقط الألفاظ الغريبة.

إنّ هذا المنحى في تناول المتشابهات في القرآن يقترب كثيرا من البحث عن فكرة النظم وتطبيقاتها وهي الفكرة التي جاء بها الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، فقد قال: «النظم: هو توخي معاني النحو»[1]، وقوله: «واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها»[2].

وفي مثل هذا المنحى في تحليل المادة اللغوية، يقول أحد الباحثين: «وقد أرشدنا إلى غاية النحو الحقيقية كثير من العلماء غير النحاة وهم دائما ممن يعنون بالنصوص وشرحها وتفسيرها، ومن هؤلاء ابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـ) الذي يرى النحو: (ترتيب العرب لكلامهم الذي نزل به القرآن، وبه يفهم معاني الكلام التي يعبر عنها باختلاف الحركات وبناء الألفاظ)، ومن هؤلاء أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ) الذي يرى أنّ النحو: (يفهم به خطاب العرب وعادتهم في الاستعمال إلى حد يميّز بين صريح الكلام ومجمله وحقيقته ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده ونصه وفحواه ولحنه ومفهومه)»[٣].

ومن هنا نرى أن النحو يتجاوز الإطار الذي وضعه له أهل حرفته وهم النحويون إلى أن يكون الأداة التي يتم بها الكشف عن أبعاد النص المختلفة بما يؤدي إلى إدراك معانيه ومراد قائله. ما يعني أن وظيفة النحو الكبرى هي أن يدرك المخاطب المعنى. ويبدو أن سيبويه من أوائل من نظر في نظم الكلام ووضع الآليات للكشف عن معناه ومن ثم استخراج الأحكام النحوية على وفق ذلك المعنى المدرك[٤].

«إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود، كل لفظة بل كل حرف وضع وضعا فنيا مقصودا، ولم تراع في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل روعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله، ومما يدّل على ذلك الإحصاءات التي أظهرتها الدراسات الحديثة والتي بينت بوضوح أن القرآن الكريم إنما حسب لكل حرف فيه حسابه وانه لا يمكن أن يزاد فيه أو يحذف منه حرف واحد»[٥]. فإذا كان لكل حرف حسابه المحسوب فالأولى أن يكون لكل كلمة من كلماته قد حسب حسابها، ولعل ما يقدّمه الفيروزآبادي في هذا المجال يعد مصداقا لفهم بعض ذلك الحساب الدقيق.

التقديم والتأخير

يعدّ التقديم والتأخير من سنن العرب في كلامها وكان احمد بن فارس(٣٩٥هـ) قد عقد في كتابه المشهور بابا سمّاه بـ [باب التقديم والتأخير]، قال فيه: «من سُنن العرب تقديمُ الكلام وهو في المعنى مُؤخّر، وتَأخِيرُهُ وهو في المعنى مُقَدَّم»[٦]. ولقد أعطى الخليل وسيبويه[٧] العلماء الخالفين الأفكار الأساسية في النظر إلى هذه الظاهرة، وبيان العلة التي أدت إلى مثل هذا التحول في الكلام.

ولم تلق هذه الظاهرة العناية من النحويين أو غيرهم من علماء المعاني من البلاغيين الاهتمام الذي تستحقها، إلا على قدر ارتباط هذه الظاهرة بالإعراب؛ في داخل حدود الجملة. ولم يكن من هؤلاء أن ينتقلوا إلى فهم هذه الظاهرة في إطار النص وهو الأمر الذي تناوله المفسرون ومن اهتم بأسلوب القرآن الكريم فاستطاعوا الكشف عن المعاني البلاغية في الأسلوب القرآني التي أودعها الله في كتابه العزيز فكانت دراستهم أكثر عمقا وأغزر مادة وأكثر فائدة للدارسين[٨]. والتقديم والتأخير الذي تعرض له الفيروزآبادي يمكن تقسيمه على قسمين هما:

١) التقديم النحوي

ويضم تقديم المفعول به الثاني، وتقديم الجار والمجرور على الفعل.

أ) تقديم المفعول الثاني: قد يفصل المفعول الثاني بين المفعول الأول وبعض توابعه من نحو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(النمل٦٨) و ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(المؤمنون ٨٣) فجاء على الأصل من عدم الفصل بين المتبوع والتابع بفاصل.

وقد علّق الفيروزآبادي على ذلك بقوله: «لأَنَّ ما في هذه السّورة [أي: المؤمنون] على القياس؛ فإنَّ الضَّمير المرفوع المتَّصل لا يجوز العطفُ عليه، حتى يؤكَّد بالضمير المنفصل، فأَكَّد (وعدنا نحن) ثم عُطِف عليه (آباؤنا)، ثم ذكر المفعول، وهو (هذا) وقُدِّمَ في النمل المفعول موافقة لقوله (تراباً) لأَنَّ القياس فيه أَيضاً: كنَّا نحن وآباؤنا تراباً، فقدّم "تراباً" ليسُدّ مسدّ نحن وكانا متوافقين»[٩]؛ لما تقدم في النمل بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾(النمل ٦٧).

فوجود هذا التقديم مرة والتأخير أخرى يؤدي إلى الكشف عن التركيبات الأخرى التي لم يأت فيها إلا صياغة واحدة.هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد توافقت الآيتان في ترتيب كلماتها.

ب) **تقديم الجار والمجرور على فعلهما**: ذكر الفيروزآبادي في هذا الجانب في المتشابه [وهو المتشابه اللفظي من الآيات] قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾(البقرة١٧٣) بتقديم [به] في هذه السورة وتأخيرها في سورة المائدة: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (الآية٣) وكذلك في سورتي (الأنعام١٤٥ والنحل١١٥) وعلل ذلك بقوله: «لأَنّ تقديم الباءِ الأَصلُ؛ فإنها تجرى مَجْرى الأَلف والتشديد في التَّعدِّي، وكان كحرف من الفعل، وكان الموضع الأَول أَوْلى بها هو الأَصل؛ ليُعلم ما يقتضيه اللفظُ، ثم قدم فيما سواها ما هو المُسْتنكر، وهو الذبح لغير الله، وتقديمُ ما هو الغرض أَولى. ولهذا جاز تقديم المفعول على الفاعل، والحال على ذي الحال،والظرف على العامل فيه؛ إذا كان (أَكثر في) الغرض في الإِخبار»[١٠].

إذ تقوم معالجة الفيروزآبادي للنص القرآني هنا على النظر إليه نظرة تعنى بالوحدة اللغوية فتأتي الأصول في الموضع المتقدمة وتذكر فروعها في مواضع

تالية؛ فكأن من أهداف القرآن تقديم الأنماط اللغوية المتبعة في كلام العرب بالقدر الذي تخدم به الغرض الأساسي وهو الإبلاغ. فكما يُعدّى الفعل بهمزة التعدية أو كما يسميها الفيروزآبادي (الألف) وبالتشديد؛ فكذلك يُعدّى الفعل بحرف الجر بمعنى أن الفعل يصل إلى مفعوله بالباء.

على أن هناك فرقا دلاليا بين كل منهما[١١] لم يكن ملاحظا لدى صاحبنا الذي لم يرد – على ما يبدو – الإشارة إلى المشابهة في الوظيفة النحوية حسب. ولما كان هذا الموضع الأول ذكرا كان أولى بأن يذكر في الأصل في بناء الجملة. ثم كان التقديم في المواضع الأخرى ليبين ميزته في التقديم وليلحظ غرضه من تقديم الاهتمام ما هو مستنكر وهو الذبح لغير الله، وهو أولى بالتقديم لما فيه من العناية والاهتمام.

ويستطرد الفيروزآبادي في ذكر مواضع جاز فيها التقديم للسبب المذكور آنفا فيجوز تقديم المفعول إذا كان هو الغرض من الكلام، وكذلك تقديم الحال على صاحب الحال وتقديم الظرف على عامله.

وقد عرف عند النحويين والبلاغيين أن التقديم والتأخير من الأساليب التي تبين الألفاظ التي هي موضع العناية والاهتمام وقد يتقدم ذكر الجار والمجرور لا لأجل كونه موضع الاهتمام، بل لأنّ بقاءه في موضعه الأصل قد يوقع السامع في اللبس مع الركة في العبارة فقد قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ (المؤمنون٢٣)، وقال تعالى:﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (المؤمنون٣٣)، «لأَنَّ صلة (الذين) في الأُولى اقتصرتْ على الفعل وضمير الفاعل، ثمَّ ذكر بعده الجارّ والمجرور ثم ذكر المفعول وهو المَقُول، وليس كذلك في الأُخرى، فإن صلة الموصول طالت بذكر الفاعل والمفعول

والعطف عليه مَرّة بعد أُخرى، فقدّم الجارّ والمجرور؛ لأَنَّ تأخيره يلتبس، وتوسيطه ركيك، فخُصَّ بالتقدم»[١٢].

قال الزركشي (٧٩٤هـ): «ولما أمن هذا الإخلال بالتأخير قال في موضع آخر من السورة: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مثلكم﴾»[١٣]. وهي الآية الأولى. وجعل السكاكي[١٤] علة جواز هذا النوع من التقديم كون التأخير مؤديا إلى الإخـلال بالمقصود، ومثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(المؤمنون٣٣)، فقدم (من قومه) على (الذين كفروا)، إذ لو تأخّر لتوهم أنه صلة (الدنيا) وحينئذ يشبه الأمر في القائلين أهم من قومه أم لا؟ فكان التقديم أولى لتأدية التأخير إلى الإخلال ببيان المعنى المراد.

ويذكر الفيروزآبادي أن من تقديم الجار والمجرور ما تكون العلة فيه هي موافقة ما تقدمه؛ من ذلك التقديم في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾(فاطر١٢) قدم الجار والمجرور موافقة لما قبلها من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[١٥](فاطر١٢) على حين أنه أتى بالمتشابه مع الآية المتقدمة في موضع آخر على ما يقتضيه القياس من تأخير هما عن المفعول الثاني لـ [ترى] وهو قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾(النحل١٤).

وقال الفيروزآبادي: «ثم إن قوله: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ و﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ اعتراض في السورتين يجرى مجرى المثل، ولهذا وَحّد الخطاب، وهو قوله: (وترى) وقبله وبعده جمع، وهو قوله: (لتأكلوا) و (تستخرجوا) و (لتبتغوا). وفى الملائكة: (تأكلون) و (تستخرجون)، (لتبتغوا) ومثله في القرآن كثير، منه ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾(الحديد٢٠) وكذلك ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً

سُجَّداً﴾(الفتح٣٩)، ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾(الزمر٧٥) وأمثاله. أَي لو حضرت أَيها المخاطب لرأَيته في هذه الصفة؛ كما تقول: أَيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، فتأَمل فإِن فيه دقيقة»[١٦].

٢) التقديم اللفظي

وهو النوع الثاني من التقديم وقد آثرنا أن نسميه بهذا المصطلح لأنه قائم على أن تقدم لفظة على لفظة أخرى في موضع،وتتأخر عنها في موضع آخر، مع وجود علاقة قائمة بين اللفظتين. أو أن تأتي اللفظتان في موضعين من الآي المتشابهات بحيث تنفرد لفظة بموضع وتنفرد اللفظة الأخرى بموضع آخر، من ذلك التبادل الذي يحدث بين الثنائيات: النصارى × الصابئون/ الشفاعة × العدل / النفع × الضر/ اللهو× اللعب / كبر السن × عقر المرأة / المغفرة × العذاب / العذاب × الرحمة / السموات × الأرض/ الليل × النهار/ المال × النفس/ هارون × موسى/ موسى× هارون.

ونسلط الضوء على بعض الأمثلة من ذلك تقديم لفظة النصارى على الصابئين في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ (البقرة ٦٢) وتقديم الصابئين على النصارى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾(المائدة٦٩) وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾(الحج١٧). إذ يرى الفيروزآبادي أن يعلل ذلك بالرجوع إلى الجهة المنظور إليها منها بقوله: «لأَنَّ النصارى مقدَّمون على الصَّابئين في الرُّتْبة؛ لأَنهم أَهل الكتاب؛ فقدَّمهم في

البقرة؛ والصَّابئون مقدَّمون على النصارى في الزمان؛ لأَنهم كانوا قبلهم فقدَّمهم في الحج، وراعى في المائدة المعنيين؛ فقدَّمهم في اللفظ، وأَخرهم في التقدير؛ لأَن تقديره: والصّابئون كذلك...»[١٧] بمعنى أن ترتيب الطوائف في الآية الأولى كان على حسب كتب الله المنزلة فالمعنى المترتب الذين آمنوا بكتب الله المتقدمة كصحف إبراهيم وتوراة موسى وهم اليهود وإنجيل عيسى وهم النصارى، فرتبهم على ما رتبهم عليه من إرسال الرسل والأنبياء، ثم ذكر الصابئين وهم الذين لا يثبتون على دين. أما الترتيب في الآية الثانية فكان على حسب الأزمنة، إذ وجودهم سابق للنصارى فهم قبل عيسى عليه السلام؛ وإما الترتيب في الحج فهو بحسب الأزمنة فلم يقصد فيها الكتب[١٨].

وقدّم الشفاعة على العدل في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾(البقرة٤٨) وقدم العدل على الشفاعة في الآية الأخرى من السورة نفسها وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾(البقرة١٢٣).

وفي ذلك قال الفيروزآبادي: «وإنما قدم الشفاعة قطعًا لطمع من زعم أَن آباءَهم تشفع لهم، وأَن الأَصنام شفعاؤُهم عند الله، وأَخرها في الآية الأُخرى لأَنَّ التقدير في الآيتين معاً لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة؛ لأَنَّ النفع بعد القبول. وقدَّم العدل في الآية الأُخرى ليكون لفظ القبول مقدَّما فيها»[١٩]. وفصل الفيروزآبادي في الكلام في اللفظتين (النفع والضر) حين وقف على المتشابه من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾(الأعراف١٨٨) وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾(يونس٤٩) فبيَّن علة ذلك بقوله: «لأَنَّ أَكثر ما جاءَ في القرآن من لفظ الضرّ والنفع معاً جاء بتقديم لفظ الضّرّ؛ لأَنَّ العابد

يعبد معبوده خوفاً من عقابه أَوَّلاً، ثمَّ طمعاً في ثوابه ثانياً. يقوّيه قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾(السجدة١٦)، وحيث تقدم النفع تقدّم لسابقة لفظ تضمّن نفعاً. وذلك في ثمانية مواضع: ثلاثة منها بلفظ الاسم، وهي هاهنا [الأعراف١٨٨] والرّعد[٢٠] وسبأ[٢١]. وخمسة بلفظ الفعل وهي في الأَنعام: ﴿مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا﴾[الآية٧١] وفي آخر يونس: ﴿مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾[الآية١٠٦] وفي الأَنبياء: ﴿مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ﴾ [الآية٦٦] وفي الفرقان:﴿ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ﴾[الآية٥٥] وفي الشعراء: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[الآية٧٣] أَمّا في هذه السورة فقد تقدّمه ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ﴾[الآية١٧٨] فقدّم الهداية على الضَّلالة. وبعد ذلك ﴿لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[الآية١٨٨] فقدّم الخير على السّوء، فكذلك قدّم النَّفع على الضرّ وفي الرّعد: ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[الآية١٥] فقدّم الطَّوع وفي سبأ: ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[الآية٣٦] فقدّم البسط. وفي يونس قدّم الضّرّ على الأَصل ولموافقته ما قبلها ﴿لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾[الآية١٨] وفيها ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ﴾[الآية١٢] فتكرّر في الآية ثلاث مرّات»[٢٢].

فالفيروزآبادي يرجع سبب التقديم لـ (النفع) مراعاة السياق اللغوي المتقدمة معالمه على الآية وبذا سيكون تقديم الضر هو الأصل فلا يحتاج إلى ما يسوغه لانسجامه مع الطبيعة الإنسانية وتوجهها نحو خالقها.

وجاء في بيان قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾(الأنعام٣٢)؛ قوله: «قدّم اللَّعب على اللَّهو في موضعين هنا، وكذلك في القتال [وهي سورة محمد][٢٣]، والحديد[٢٤]، وقدّم اللَّهو على اللَّعب في الأَعراف[٢٥]، والعنكبوت[٢٦]، وإِنما قدّم اللَّعب في الأَكثر لأَنَّ اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الصبا واللهو

زمانه الشباب، وزمان الصبا مقدّم على زمان الشباب. يُبيِّنه ما ذكر في الحديد ﴿اعْلَمُوْا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان [وَلَهْوٌ] كلهو الشبَّان [وَزِيْنَةٌ] كزينة النِّسوان [وَتَفَاخُرٌ] كتفاخر الإخوان [وَتَكَاثُرٌ] كتكاثر السُّلطان.

وقريب من هذا في تقديم لفظ اللعب على اللَّهو قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَاَ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّاَ﴾(الأنبياء١٦-١٧) وقدّم اللَّهو في الأعراف لأَنَّ ذلك في القيامة، فذكر على ترتيب ما انقضى، وبدأَ بها به الإنسان انتهى من الحالتين.

وأَما العنكبوت فالمراد بذكرها زمانُ الدُّنيا، وأَنَّه سريع الانقضاءِ، قليل البقاءِ، وإِنَّ الدَّار الآخرة لهى الحيوان أي الحياة التي لا بداية لها، ولا نهاية لها، فبدأَ بذكر اللهو؛ لأَنَّه في زمان الشَّباب، وهو أَكثر من زمان اللعب، وهو زمان الصِّبا»[٢٧].

فالتقديم والتأخير خضع هنا لسياق الحال وهو المفهوم من قوله: «لأَنَّ ذلك في القيامة» وقوله: «...فالمراد بذكرها زمانُ الدُّنيا» ودلّ على هذا الحال ما جاء من ألفاظ السياق اللغوي الذي أتت فيه اللفظتان.

ومن المتشابه من سورة آل عمران قوله تعالى حكاية على لسان زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران٤٠) بتقديم كبر السن وتأخير وصف امرأته بأنها عاقر، وقوله في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾(الآية ٨)؛ قال فيه الفيروزآبادي: «فقدم ذكر المرأة لأَن في مريم قد تقدم ذكر الكِبَر في قوله: ﴿وَهَنَ العَظْمُ مِنِي﴾، وتأَخر ذكر المرأَة في قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَآئِي وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً﴾ ثم أَعاد ذكرهما، فأَخر ذكر الكِبَر ليوافق (عتيا) ما بعده من الآيات وهي (سَوِيًّا) و (عشيًّا) و (صبيًّا)»[٢٨].إذ يلاحظ أنّ علة التأخير

تعود إلى مراعاة الانسجام بين الفواصل القرآنية؛ مع مناسبة ذلك لتقديم ما تأخّر وتأخير ما تقدم كما مرّ في الآية المتقدمة.

ومن مظاهر التقديم اللفظي ما جاء من تقديم فعل المغفرة على فعل العذاب من نحو قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾(البقرة٢٨٤)، وهو المتبع في ما جاء من الآيات إلا في المائدة وفيه قال الفيروزآبادي «يغفر، مقدَّم هنا، وفى غيرها إلا في المائدة؛ فإنَّ فيها ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾(المائدة٤٠) لأنها نزلت في حقِّ السارق والسارقة، وعذابُهما يقع في الدنيا فقُدّم لفظ العذاب، وفى غيرها قدّم لفظ المغفرة رحمة منه سبحانَه، وترغيباً للعباد في المسارعة إلى موجِبات المغفرة»[٢٩].

وجاء تقديم فعل العذاب على فعل الرحمة بقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾(العنكبوت٢١) في هذه السورة حسب وعلل الفيروزآبادي ذلك بقوله: «لأن إبراهيم خاطب به نمُرودَ وأَصحابَه، فإنَّ العذاب وقع بهم في الدّنيا»[٣٠] لقد جاء تقديم المغفرة والرحمة متناسبا مع ما يليق بالله سبحانه وتعالى ومع ما نطقت به الآية، المباركة من قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف١٥٦) فجعل الله رحمته عامة وعذابه خاصا وما ورد من الآيات ينطق بذلك فتقديم الرحمة أو المغفرة لا يحتاج إلى مسوغ لأنه عام وهو الأصل ولكن تقديم العذاب يحتاج إلى ما يسوغه لكونه خاصا، وهو ليس الأصل.

ويكشف السياق ما لكل من الآيتين من هذه الخصوصية، وقد أجاب صاحب الكشاف عن تقديم فعل العذاب على فعل المغفرة في المائدة بقوله: «لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة»[٣١].

ويقول ابن الزبير الأندلسي (ت٧٠٨هـ) بهذا الصدد ما نصه: «إن هذه الآية لما تقدمها قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ (المائدة ٣٣) ثم بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة٣٨) تقدم في هاتين القضيتين من خبر المحاربين والسارقين ذكر تعذيبهم جزاء على فعلهم،ثم ذكر المغفرة لهم أن تابوا، واتبع ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (المائدة٤٠)، وبناؤها على ما تقدم قبلها وما يليها كما تبين،فقدم ذكر العذاب على المغفرة لمناسبته لما اتصلت به وبنيت عليه وأما الآي الأربع[٣٢] فلم يقع قبل شيء ذكر مثل الواقع في سورة المائدة»[٣٣].

والأمثلة من هذا التقديم الذي سمّيناه (التقديم اللفظي) كثيرة، وقد وقف الفيروزآبادي على مظاهر أخرى منها: تقديم الأرض على السماء؛ والسموات على الأرض، وتقديم الأموال على الأنفس وتقديم فرعون وتأخيره في مواضع أخرى وتقديم الليل على النهار[٣٤].

.....

١) دلائل الإعجاز ٨١. وينظر منه:٥٥.
٢) دلائل الإعجاز٨١.
٣) النحو والدلالة ٢١-٢٢. وينظر الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم:٢/ ٦٩٣.
٤) ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه: ٢٥-٣١.
٥) التعبير القرآني: ١٢.
٦) الصاحبي في فقه اللغة: ٢٤٦.
٧) ينظر: الكتاب لسيبويه: ١/ ١٥، و٢٧، وغيرها.

٨) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ٢/ ٣٢٩.
٩) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١/ ٣٣٢.
١٠) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١٥٠- ١٥١.
١١) ينظر معاني النحو: ٣/ ٢٠.
١٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١/ ٣٣٠-٣٣١٨.
١٣) البرهان في علوم القرآن:٣/ ٢٣٤.
١٤) مفتاح العلوم ٤٤٦، وينظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم ١٢٣.
١٥) يبدو أن هنا سهو يمكن أن يكون وقع فيه الفيروزآبادي فأورد هنا قوله تعالى: ﴿**لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا**﴾ (النحل١٤)، والصواب ما ذكرناه.
١٦) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١/ ٢٨١- ٢٨٢.
١٧) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١/ ١٤٤-١٤٥.
١٨) ينظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم:١٥١.
١٩) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١/ ١٤٢.
٢٠) قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا**﴾ (الآية١٦) والصواب في الرعد.
٢١) قوله تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا**﴾ (الآية ٤٢). والصواب: وفي سبأ.
٢٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١/ ٢٢٠.
٢٣) قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**﴾ الآية٣٦.
٢٤) قوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ**﴾ الآية٢٠.
٢٥) قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾ الآية٥١.
٢٦) قوله تعالى: ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ**﴾ الآية٦٤.
٢٧) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:١/ ١٩٢-١٩٣.
٢٨) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:١/ ١٦٢.
٢٩) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:١/ ١٥٥.
٣٠) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:١/ ٣٦١.
٣١) الكشاف١/ ٦١٢.

٣٢) وهي سور البقرة ٢٨٤، وآل عمران١٢٩، والمائدة ١٨، والفتح١٤.

٣٣) ملاك التأويل:١/ ١٣٩-١٤٠.

٣٤) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١/ ٢١٧-٢١٨ و٢٢٥-٢٢٦و٢٣١-٢٣٢و ٢٤٤و٢٧٠و٣٥٧، ٢/ ٣٨٣.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١) الإحكام في أصول الأحكام: الحافظ أبو محمد علي بن سعيد بن حزم الظاهري (ت ٤٥٦ هـ)، طبعة الإسناد أحمد شاكر، مطبعة الإمام – القاهرة، د.ت.

٢) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت١٩٨٨م.

٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين الفيروزابادي (ت٨١٧هـ) الأجزاء الخمسة الأولى بتحقيق: محمد علي النجار، القاهرة١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م، والجزء السادس بتحقيق: الأستاذ عبد العليم الطحّاوي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

٤) التعبير القرآني: د. فاضل صالح السامرائي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، مطبعة التعليم العالي– الموصل، ١٩٨٦م – ١٩٨٧م.

٥) التقديم والتأخير في القرآن الكريم: حميد احمد عيسى العامري، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٦) دلائل الإعجاز (كتاب): عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي – القاهرة،مطبعة المدني، (د.ت).

٧) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: أحمد ابن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة أ. بدران – بيروت / لبنان، ١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م.

٨) الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه (ت١٨٠هـ) طبعة مصورة عن مطبعة بولاق، المطبعة الأميرية الكبرى – القاهرة، الطبعة الأولى ١٣١٧هـ.

٩) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: جار الله الزمخشري، دار الفكر– بيروت (د.ت).

١٠) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: د. فاضل السامرائي، دار الشؤون الثقافية–بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

١١) معاني النحو: د. فاضل صالح السامرائي، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر – الموصل، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م – ١٩٨٧م.

١٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.

١٣) مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرسالة - بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م.

١٤) مفهوم الجملة عند سيبويه: د. حسن عبد الغني الأسدي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت / لبنان، ٢٠٠٧م.

١٥) المقتضب: أبو العباس المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب - بيروت، (د.ت).

١٦) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي (ت٧٠٨هـ)، تحقيق: د. محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٧) النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي: د. محمد حماسة عبد اللطيف، (د.مط)، - مصر، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.